التنويع الأسلوبي ودوره في الإقناع والتأثير
دراسة بلاغية تطبيقية

د. محمد بن عبد الرحمن الخراز

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المشارك

في قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة القصيم

1436-1435 هـ

مقدمة:

بتوفيق من الله وحده صرفت عددا من بحوثي الأكاديمية لجانب التطبيق البلاغي التربوي، ونشرت عديدا من هذه البحوث، وسأذكر عناوينها في ختام هذه التقدمة، وكان هذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم ختام هذه البحوث التي عكفت عليها لفترة من الزمن استغرقت ما يزيد على السنتين، ثم قمت بتنقيحها وفق الشروط الأكاديمية للنشر المحكَّم.

والذي دعاني لهذا الانكفاء حول التطبيق التربوي هو الرغبة الملحة للإسهام في جهود سابقة ومعاصرة لانتزاع البلاغة من طابعها النظري المجرد غالبا، إلى عالمٍ من الانتفاع التطبيقي والميسَّر أيضا، فلم يكن يعنيني بوجه من الوجوه بهرجة العَرض أو تعقيده، وإن كان ذلك قد يضفي على البحث هالة من الجذب إلى حد ما، لكن من يعرفون حقائق الأمور، ويعتنون بنتائج الأعمال يهمهم قرب المأخذ، وسهولة المسلك، وسداد الحاجة القائمة.

ومن هنا جاء بحثي هذا وما سبقه من بحوث مماثلة تم تحكيم بعضٍ منها لدرجة المشارِك، وبعضٌ منها انضم إليه هذا البحث للتحكيم للأستاذية بتوفيق الله- جاء محاولا جَهده أن يلتصق بالواقع ويقاربه، ويستمد منه نماذجه وأمثلته، بعد تنزيلها على ما يناسبها من قواعد البلاغة، وليس كل القواعد البلاغية بتفريعاتها وتشعيباتها، وإنما ما كان من القواعد سَلس المأخذ، متوفر التطبيق، شائع الاستعمال..

وقد اعتمدت في بحثي هذا على منهج التطبيق والتحليل البلاغي للنصوص والأمثلة والمواقف، من أجل استخلاص العلاقة الجامعة بين التطبيق والعمل وبين القاعدة البلاغية والأسلوبية التي يمكن إسناده إليها، ليسهل استحضاره، وليتحول من كونه تطبيقا ذاتيا واجتهادا شخصيا.. إلى كونه تطبيقا قياسيا يمكن التمثيل به واحتذاؤه وتطويره في خطوة تليها خطوة علمية صحيحة.

وقد جاء هذا البحث بعنوانه المذكور؛ وهو: (**التنويع الأسلوبي ودوره في الإقناع والتأثير ؛ دراسة بلاغية تطبيقية**)؛ ليُتم سلسلة العناوين السابقة، المماثلة له بمنهجها وبتطبيقاتها ، وهي :

بحث (**القول اللين وخلافه، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المفهوم والتطبيقات، دراسة بلاغية تحليلية**).

وبحث (**مطابقة الأسلوب لمقتضى الحال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صوره وتطبيقاته، دراسة بلاغية تحليلية**).

وبحث(**أساليب الشرح والإيضاح ومقاماتها في التربية والتوجيه؛ دراسة بلاغية تطبيقية**).

وبحث (**العلاقة بين الأساليب البلاغية والآداب الشرعية في النصح والتوجيه؛ دراسة بلاغية تطبيقية**).

فهذه خمسة بحوث رجعت في مجموعها إلى ما يزيد على مائة مصدر ومرجع، لتشكل بإذن الله رؤية جيدة لمن لكل مهتم بالتطبيق البلاغي في مجالات الحياة، وبالأخص مجال التوجيه والتربية، وهما من أمس اهتمامات الناس في تفاصيل حياتهم اليومية، سواء خاصة الناس، وعامتهم. والله الموفق.

مدخل وتمهيد:

تنويع الأساليب مما قد يقتضيه المقام. وهو أيضا مما يضفي المزيد من الحيوية على أسلوب الناصح والمربي، إن هو أتقنه. ويتحقق ذلك بالجمع بين عدد من أساليب الاتصال؛ العملية والقولية معا، أو بأن يجمع بين أنواع من الأساليب القولية فحسب.

كما قد يتحقق بالانتقال من طريق إلى آخر، داخل الموضوع ذاته، وهذا ما يسميه البلاغيون الالتفات، وسنتحدث عنه في هذا البحث حديثا مستقلا لأهميته الخاصة.

فأما كون المقام يقتضي هذا التنويع فمثل ما يكون في حال حصول معارضة شديدة تقتضي تنويع الإقناع، أو في حال مخاطبة الغافل، أو الجاهل، ونحوهما ، فيكون في تنويع الأسلوب مطابقة للحال، وهي البلاغة.

كما يتعين التنويع الأسلوبي في حال استحكام شهوة محرمة أو شبهة مُهلكة في نفس المتلقي، كما نراه في الحوار بين النبي وبين الشاب الذي طلب منه الإذن له بالزنا، فقد جمع الرسول في التأثير عليه بين الإقناع المنطقي، والتكرار فيه: (أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ.. أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ.. أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ..إلخ) إلى جانب الدعاء له: (اللهم اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ)[1] ، وأضاف مؤثرات عملية بليغة، وهي: إجلاسه له بالقرب منه، وَوَضْعِ يده على صدره تحننا عليه.. فالتقت أساليب الاتصال العقلي، والروحي، و الجسدي، معا.

وأما كون تنويع الأساليب يزيد في حيوية التواصل فلأن البقاء على حال واحدة قد يورث الملل، لاسيما عند التطويل في الكلام، أو التكرار، حتى ولو كان المتكلم موصوفا بالبلاغة والطلاقة؛ فإن طبيعة النفوس تمل الشيء إذا كثر وزاد ، إن لم يمزج بما يلونه ويجمله.. حتى لو كان من أطيب الطعام، أو المنام، أو المكان، فكذلك الكلام.

ولهذه الأسباب الفطرية وغيرها يعمد البليغ إلى التماس الأساليب التي تطرد عن السامع الغفلة والسأم؛ وهي التي تشد تفكيره إلى موضع

---

[1] الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، وهو برقم 22265

العبرة والموعظة ، وذلك بناء على توقع المتكلم لأحوال المخاطب من حيث النشاط والخمول، والإقبال والإعراض..

ومن أشهر الأساليب التي تحقق ذلك هذا الذي نحن بصدده من تنويع الخطاب بين المستوى السهل والمستوى الصعب، وبين التلميح والتصريح، وبين اللين والشدة، وبين رفع الصوت وخفضه.

وفي كتاب (تجريد المنطق) أن من البلاغة (رفع الصوت في موضوع يليق به، أو خفضه، فإنه يفيد إيذاناً لحال القائل أو استدراجا للمخاطب)[1] . إلا في الحوار، فإن من آدابه أن يتوسط بين رفع الصوت وخفضه .

ومنها إدراج القصص الهادفة، والروايات المفيدة في أثناء الكلام. ومنها تلطيف المقام بشيء من المزاح إن كان المقام يحتمله.. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح، ولا يقول إلا حقا.

وهكذا فمما يساعد في تصفية الأسلوب وتكميل دلالته على المعاني توخي ما يستدعيه المقام من الأساليب الملائمة وما يحف بها من الأساليب الثانية الداعمة، وذلك بأن يراعي المتكلمُ -كما قال الماورديُّ- (مخارجَ كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فإن كان ترغيبا قرنه باللين واللطف، وإن كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف؛ فإن لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما ، فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا)[2] .

ويتضمن هذا البحث أربعة أشكال من التنويع الأسلوبي، وليست هي كل التنويع البليغ، بل عالمَ من عالمه الواسع، لكنني اخترتها لما تمثله من مسائل كليات يندرج تحتها تفريعات جزئيات، فتشكلت الرؤية تلقائيا بلا تكلف مني ولا إجبار على هذا الاختيار..

<u>أولا : التنويع في أساليب الإيجاز :</u>

أسلوب الإيجاز يشمل كثيرا مما هو قولي ومما هو عملي في الدلالة المختصرة ، وقد تنبه لهذا الاتساع نقادٌ قدماء، كالكلاعي -من

---

[1] تجريد المنطق، نصير الدين الطوسي: 96

[2] أدب الدنيا والدين، للماوردي: 65

علماء القرن السادس الهجري-، فقال: (وقد ركَّبوا في باب الإيجاز أنواع المسامحة والمجاز حتى قال قائلهم...) وساق بيتين من الشعر فيهما ذكر الاكتفاء بإشارة طرف العين للدلالة على مقاصد معينة عند الشاعر..

ثم قال معلقا على البيتين: (فجعل إشارتها قد عبَّرت -على خيفةٍ- ما لا يعبّر مثلُه في أفصح صحيفة)

ثم زاد في الكشف عن اتساع دائرة الإيجاز؛ إلى القدر الذي تتعدى فيه إيجاز القول إلى إيجاز الصمت والسكوت، فقال: (وقد جعلوا الصمت خطابا، والسكوت جوابا، قال الجعفي:

وفي النفس حاجات وفيكِ فطانة سكوت: جوابٌ عندها وخِطابُ)[1]

ومن الإيجاز القولي أن يعمد الناصح إلى طرح الأسئلة ثم يتركها بلا جواب، وهو بهذا الأسلوب يترك للمخاطب حرية التفكير، أو يثير لديه الرغبة في التفكير، والوصول للجواب بنفسه.. أو ربما يحفزه على السعي وراء الجواب بمراجعة أهل العلم به.

وقد يريد المتكلم من طرحه لسؤالٍ مَّا مع الامتناع عن الإجابة عليه أو تأخيرها -أن يُخلخل بعض الأمور التي كانت في حكم المُسلَّمات عند المخاطب، مع أنها مما يضر به في دينه لو أقام عليها. مثال ذلك يطرح عليه تساؤلا بلا إجابة منه عن حكم الربا.. أو الغيبة، أو التهاون بالصلاة، أو سؤال الأموات، والطواف بالقبور.. وغيرها، أحلال هي أم حرام، وما دليل ذلك؟

وفي هذه الحالة يُنَزَّل المسئول في منزلة الحَكَم ، ليدرك بنفسه مقدار ما سيتحمله من المسئولية أمام الله تعالى عن عواقب جوابه؛ ولذا فسوف يحرص على الدقة في الإجابة، ويتأثر بها غالبا أكثر مما أنه لو تلقى الحكم الشرعي في شكل إجابة جاهزة؛ دون أي مشاركة له في البحث عنه، أو استنباطه.

وقد ذكر الدكتور محمد بن سعد الشويعر قصة يُناسب أن تُعَدَّ مثالا لهذا الأسلوب ، قال: «كنت مع الشيخ ابن باز -رحمه الله- في إحدى السنوات في (مجمع الفقه بمكة)، وكنت جالسا بجانبه، وجاء

---

[1] إحكام صنعة الكلام، للكلاعي: 94

موضوعٌ يتحدث عن عُلوِّ الله تعالى واستوائه على عرشه، كما جاء في الأسماء والصفات، وكان الشيخ يتحدث في هذا المقام، فقام شخص من إحدى الدول ، متجنيا، ومتعصبا، ليَدخل في إثارة الشيخ (للحديث عن الوهابية): وأنتم الوهابية تقولون كذا.. وتقولون كذا.. حول استواء الله على عرشه...

عِندها كان الشيخ يحاول تهدئته، والرجل يتحدث ويواصل، فكان الشيخ يقول: "سبح...سبِّح"؛ أي سبح الله. وهذه أشد كلمة عنده تجاهه. وعندها طلب مني سماحتُه أن أسجل اسم كتابين ألّفهما علماء المالكية - والمالكية هي المذهب الذي ينتمي إليه ذلك الرجل- وقال سماحته: أمِّن من هذا الكتاب ثلاثين نسخة، فقمنا في اليوم التالي بتوزيعه في المجمع الفقهي. ثم قال سماحته: إن الكتاب هذا من تأليف علماء المالكية. وقال: إنْ وُجِد في كلامهم ما يخالف كلامنا وكلام الإمام مالك فإننا نُرحب بذلك!. وبذلك قام الشيخ رحمه الله بإقناع ذلك الرجل دون إثارةٍ، وبطريقةٍ عرفها ذلك الرجل).[1]

وأما الأوامر التي قد يكتفي بها الناصح عن مفصل القول ليدل بها على موضع الهداية، أو يتحدى بها كبرياء العاصي ويضعف إصراره على باطله- فمنها أن يطلب منه قراءة سير المعذبين وأخبار الأمم المهلكين إن كان متكبرا عن طلب الحق.. أو يطلب منه مثل ما طلبه القرآن الكريم من الوقوف على آثار عذابهم، والحذر أن يصيبه مثل ما أصابهم، كما في قوله **ﭧ ﭨ ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭼ** [الروم42]

أو يطلب منه أن يستدل بالآثار في السماء والأرض، وفي الأنفس، على قدرة الله على بدء الخلق وإعادته، وتصريف أحواله كما يشاء، وأنه لذلك حقيق بالإخلاص له والخوف منه والإنابة إليه جل جلاله، كما في قوله تعالى **ﭧ ﭨ ﭽ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﭼ**[العنكبوت20].

ولن أتحدث –بأكثر مما سبق- عن **(الإيجاز القولي الكلامي)** وأنواعه، فقد بات الكلام عنه مألوفا ، من ناحية بلاغته، وعناية العرب به

---

[1] مواقف مضيئة: 195-196

أيما عناية.. بنحو ما صار من المسلم به أن يتحدث البلاغيون عن إيجاز الحذف وإيجاز القصر، ونحو ذلك من التقسيمات المعروفة.. فلذا سأقصر كلامي على نوع (**الإيجاز العملي الفعلي**)، مفهومه، وصوره وتطبيقاته المناسبة لبحثنا هذا.

ومصطلح (**الإيجاز العملي**) اخترته بناء على توسيع مفهوم الإيجاز بنحو ما سبق؛ وهو نوع من البيان بغير اللسان، عند من يذهب بالبيان إلى أفق أوسع من أفق القول، ليضم طرقا أخرى في الدلالة قد يغفل عنها المتكلم، على جلالة أثرها في الناس، وتحقق التنويع الأسلوبي في صورة جلية ومؤثرة.

فمن الإيجاز الفعلي أو العملي في الدعوة والتربية ما يلي:

أ- بلاغة ترك مكان الباطل إذا لم يمكنه تغييره؛ فهذا أبلغ من كلام كثير، لاسيما إن صدر الترك من شخص يُحسب له حسابه فيما بين الناس؛ في حضوره وغيابه، ورضاه وسخطه، وإقباله وإعراضه..

ولعل هذا يكون من أسرار وصية الشارع الحكيم بإجابة الدعوة.. أي من ناحية الحفاظ على هيبة الامتناع التي قد يحصل بها التغيير إن احتِيج إليها؛ لئلا تكون تلك الهيبة قد اندثرت بكثرة الامتناع..

هذا إلى جانب تحصيل الفوائد الأخرى لإجابة الدعوة.

وقد عُرف من سيرة النبي، ثم من سير الصحابة المرضيين وأتباعه الصالحين، الحرص الشديد على إجابة الدعوة، عملا بقول فيما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: (لو أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ وَلَوْ دُعِيتُ إلى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ) رواه الإمام أحمد وغيره.

قال المروزي سألت أبا عبد الله ،أحمد بن حنبل، عن النزول في دور قومٍ، وذكرتُ من تُكره ناحيتُه بعبادان أو بطرطوس، فقال: لا تنزلها. فقلتُ: فمَن مرض وهو فيها ترى أن يعاد؟ قال: يقال له اخرج منها، أو تحول عنها. فقلتُ: إن ابن المبارك قال: إن كان عالِما لم أر أن ينزل فيها، فإن كان جاهلا كان أَمْرُهُ أسهل؟ قال أبو عبد الله -يعني الإمام أحمد بن حنبل- : العالِم يُقتدى به، ليس العالِم مثل الجاهل![1]

---

(1) كتاب الورع، عن الأمام أحمد بن حنبل، للمروزي: 20

قال ابن الشيخ عبد الرحمن السعدي: تميَّز والدي رحمه الله على كثرة مشاغله الأسرية والعلمية.. باختلاطه بالناس ومعاشرتهم، والصبر على أذاهم، وكان من عادته الذهاب إلى مجالس الناس في بيوتهم [...] فكان لمثل هذه المواقف الأثر البالغ عليهم، وعلى تركهم للمنكرات..[1]

ومثل هذا يجعل الناس تتفهم امتناع الداعي عن مجلس فيه منكر ظاهر، فيكون كأنه تكَلَّمَ وإن كان صامتا غائبا.. وهذا شكل من أشكال بلاغة التعبير؛ وإن لم تتحدث عنه كتب البلاغة حديثا متسعا.

---

(1) بتصرف من كتاب: مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: 91-93

ب- بلاغة الهَدية:

للهدية مضامين قد يعجز اللسان عن التعبير عنها.. وذلك إذا أهداها شخص معروف بالالتزام بالدين، والخلق القويم إلى شخص يظهر عليه التقصير ، فحينئذٍ يكون في معناها نصح وإرشاد ودعوة.

ولها مقامات تدل على مقاصدها، كأن يهدي الشخص لمن يحمل في نفسه ضغينة عليه، فكأنه دعاه إلى سلامة القلب.. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله:(تهادوا تحابوا)رواه الطبراني في المعجم الأوسط، و أبو يعلى في مسنده.

وقد اتخذ النبي من الهدية وسيلة للتعبير عن إنكار المنكر، حين أهدى هدية لأعرابي جافي الطبع، كان قد تعامل بقسوة معه.. فكانت هذه الهدية نهيا عن منكر من الأخلاق نهيا رفيقا، صامتا، فعن أَنَسٍ قال كنت أمشي مع النبي وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نجراني غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ وأعرابي يَسْأَلُهُ من أَهْلِ الْبَادِيَةِ حتى انْتَهَى إلى بَعْضِ حُجَرِهِ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً حتى انْشَقَّ الْبُرْدُ وَحَتَّى تَغَيَّبَتْ حَاشِيَتُهُ في عُنُقِ رسول اللَّهِ)؛ قال أنس: (وكان من تَغْيِيرِ رسول اللَّهِ أَنَّهُ أَمَرَ له بشيء فَأُعْطِيَهُ) رواه الإمام أحمد في مسنده. فقد نص أنس رضي الله عنه أن (التغيير) جاء بطريق الإيجاز العملي، وهو العطاء والهدية له.

وهكذا إذا أهدى الوالد لابنه البار هدية فكأنه يحثه على الثبات والازدياد من البر، يقول له: ازدد من برك واثبت عليه. وإذا أهداها لابنه العاق فكأنه قال له: كن لي كما أنا لك في التودد وحب الخير..

بلاغة الإكرام بحسن المعاملة وطيب المعاشرة:

فيه إيجاز لقول كثير في الدعوة والنصح والإرشاد إلى الصواب، وقد أسلمت شعوب كثيرة ليس بسماع كلام الدعاة فحسب، بل برؤية آثار الخُلق الحسن على تعاملات المسلمين الوافدين عليهم.

وكان من دأب الإمام ابن باز رحمه الله إجابة دعوة المخالفين، تأليفا لهم، وتطييبا لخواطرهم، كما فعل مع شخص كانت له كتابات قديمة لا يرضاه الشيخ؛ فظن ذلك الكاتب أن في نفس الشيخ عليه شيء -كما قال عن نفسه- وصادف أن ألقى الشيخ محاضرة في المسجد الذي يصلي فيه ذلك الرجل، فأرسل إلى الشيخ يدعوه إلى الطعام في منزله، فلم يتردد

الشيخ في الموافقة، وقال: لابأس؛ جزاه الله خيرا!. فلما علم بإجابة الشيخ لدعوته لم يكد يصدق -كما قال هو نفسه- وسُر بذلك سرورا عظيما، وارتاح خاطره، واطمئن فؤاده، حينما تيقن أن الشيخ يقدره، وليس في نفسه عليه شيء[1].

ولو كان الشيخ أرد أداء هذه المعاني بالكلام المجرد لاحتاج إلى الكثير منه، وقد لا يكافئ ما تحقق بحسن التعامل ولطف التواصل.

وللهدية والإكرام مواضع؛ لأننا نقول إن البلاغة تتحقق بالمطابقة، وأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه المناسب. فالشخص الذي لا تثمر عنده الهدية والإكرام بثمرة طيبة، بل قد يفسر الأمر بتفسير فاسد، ولذا قال أبو الطيب المتنبي:

وما قتل الأحْرار كالعفْو عنهُم ومن لك بالحُرّ الذي يحفَظُ اليَدا
إذا أنت أكرَمت الكريمَ ملكتَه وإن أنت أكرمْتَ اللئيم تمرّدا

فمثل هذا يحسن معه أسلوب بلاغي آخر ، كالإقناع المنطقي، أو التخويف بما يخاف من مثله في العادة ..

ثانيا- التنويع بأساليب الإطناب:

قد تتنوع الدلالة والتأثير بأساليب الإطناب من خلال الجمع بين القول البليغ ومما يناسبه من الفعل المطابق له في البلاغة والدلالة ؛ وقد ذكر الماوردي أن من بلاغة الكلام وآدابه أنه (إنْ قالَ قَولا حَقَّقَهُ بِفعْله، وَإِذَا تكلَّمَ بكلاَم صدَّقه فعملهُ، فَإِنَّ إرسالَ القول اخْتِيَارٌ، والعملَ بِهِ اضْطِرَارٌ. ولَأن يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُل أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يقولَ مَا لَمْ يَفعَل)[2].

ومن بلاغة التنويع بتطبيق القول على العمل ما دلت عليه قصة الصحابي الجليل سهيل بن عمرو (ت 18هـ) رضي الله عنه، في إنكاره على بعضٍ من عِلية القوم في زمانه، فقد رآهم في حالة غضب وسخط ، والسبب أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أخَّرهم في الدخول عليه، وقدَّم الموالي ممن شهد بدرا..، فقد أنكر سهيل سخط القوم، بالقول أوَّلا، ثم بالفعل ثانيا، حينما قال لهم:

---

[1] مواقف مضيئة في حياة الإمام ابن باز: 158
[2] أدب الدنيا والدين للماوردي :65

«أيها القوم إني -والله- لقد أرى الذي في وجوهكم؛ فإن كنتم غِضابا فاغضبوا على أنفسكم؛ دُعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم. أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل فيما لا ترون أشد عليكم فَوْتَا من بابكم هذا الذي تُنافسونهم عليه. ثم قال: «أيها القوم: إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون فلا سبيل لكم -والله- إلى ما سبقوكم إليه فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى أن يَرزقكم شهادة»، ثم نفض ثوبه، وانطلق، ولحق بالشام للجهاد.

ففي هذه القصة اجتمعت عوامل عديدة للتأثير، وهي: الغضب والتأثر الذي بان على محياه رضي الله عنه، ثم الكلمة المؤثرة التي ألقاها عليهم، ثم الفعل الدال على الإنكار وهو نفضه لثوبه كناية عن التبرؤ من حالهم، وأخيرا مفارقة القوم.. فكل هذه الأساليب تكاتفت من قبل شخص وَصَفته كتب السير والتراجم بأنه رجل (عاقل)، لتحقق التغيير المطلوب. حتى قال الحسن: «صَدَقَ والله؛ لا يجعل اللهُ عبدا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه»[1].

كما اجتمعت أساليب في حدث آخر؛ فأضفت الحيوية وعززت التأثير المؤمل في قصة رواها عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: كنا نُغازي عطاء الخراساني[يعني نسافر معه في الغزو] فكان يُحْيِي الليل كله صلاةً، فإذا ذهب من الليل ثلثه أو نصفه نادانا وهو في فسطاطه يُسمعنا: يا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، يا يزيد بن يزيد، يا هشام بن الغازي: يا فلان بن فلان.. قوموا فتوضئوا و صلوا؛ فإن قيام هذا الليل و صيام هذا النهار أيسر من شرب الصديد و مقطعات الحديد.. الوَحَى، الوَحَى!.. النجاءَ النجاءَ!. ثم يقبل على صلاته.[2]

ففي هذه القصة عدد من أساليب التأثير..، تنوعت بين قول بليغ مقنع، وبين حض وحث يقض المضجع، ثم تطبيق عملي مشجِّع، ومقارنة وموازنة تقرع الأفئدة، وخطاب مبكٍ، ونداء متحبب!.

---

[1] تنظر القصة في :الجهاد، لابن المبارك: 85/1، والمستدرك على الصحيحين: 318/3، وأسد الغابة: 557/2، و صفة الصفوة: 266 ، وغيرها.

[2] صفة الصفوة: 777 ، وسير أعلام النبلاء، للذهبي: 143/6. وفي لسان العرب (382/15): و الوحى : العجلة ، يقولون : الوحى الوحى و الوحاء الوحاء يعني البدار البدار ، والوحاء الوحاء يعني الإسراع".

ومن ذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العُمَري (ت184هـ) -وهو من نسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه- رأى رجلا من آل علي رضي الله عنه يَخْطر -أي يمشي مشية الخَطَرَان، وهي ضرب اليد بالجسد إذا مشى- فأسرع إليه، فأخذ بيده، فقال: يا هذا؛ إن الذي أكرمك الله به لم تكن هذه مشيته!. فتركها الرجل بعدُ[1].

فقد جمع العُمري في نصيحته أنواعا من طرق التواصل والتأثير البليغ، فهو قد تقرب منه جسديا، وتواصل معه حسيا، حين (أسرع إليه، وأخذ بيده)، ثم قدم له إقناعا منطقيا في أسلوب بلاغي حين قال له: (إن الذي أكرمك الله به [يعني النبي، فإن آل البيت شرفهم بانتسابهم إليه] لم تكن هذه مشيته)، فقد استعمل الاسم الموصول وصلته (الذي أكرمك الله به)، ولم يقل (إن النبي) وهذا يسمى عند البلاغيين (إيماءٌ إلى وجه بناء الخبر) أي أن السامع عندما يسمعه يعرف نتيجته؛ بمعنى أنه عندما يسمع قوله:«الذي أكرمك الله به» فسيدرك النتيجة منه، والنتيجة هنا هي: أن الإكرام ليس في هذه المشية، أي: لو كان الإكرام فيها لكانت مشية النبي، فلما لم تكن مشيته، لم يكن الإكرام فيها!.

ومن تطبيقات الحيوية وتنويع الأساليب البليغة القولية والعملية والنفسية ونماذجها عند الشيخ ابن باز رحمه الله -وهي كثيرة جدا- ما حكاه محمد بن أحمد الشَّدِّي وكان يعمل في مجال الثقافة والفنون، بوظيفة رسمية، كما قال عن نفسه، وقد أراد الشيخ أن يقدم له نصحا يخص مجال وظيفته، قال الشدي: «فأخذني بيدي، وأغلق باب مكتبه إلا من خاصته، مفردا من وقته الثمين لي ما يكفي وقال: إن المسؤولية عليك اليوم أكبر، وإنك لفي جهاد كبير، وأنت محل الثقة.. أريد أن تقول لي عن طبيعة عملك؟

وشرحتُ لسماحته -في وجلٍ- كلَّ ما لديَّ.. وابتسم.. ثم قال: إذا كانت هذه حدود عملك فأنا أشارك معكم بمحاضرة في كل عام ضمن نشاطكم»..[2]

---

[1] صفة الصفوة: 362

[2] مواقف مضيئة في حياة الإمام ابن باز: 180

فإن قليلا من التأمل في هذه القصة يكشف عما لا يقل عن خمسٍ أو أكثر من وسائل التأثير القولية والعملية والنفسية البليغة.

وكثيرا ما كان الشيخ يجمع بين أمرين هامين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما الدعوة والدعاء للمخاطب، لضمان التأثير والقبول بإذن الله..[1]

كما أن من تنويع أساليب الإطناب أن تتعدد الأساليب القولية الكلامية المجردة فتزيد من تأثير النصيحة، كاجتماع النصح بالكلام المباشر، مع النصح بالكناية، أو بالتشبيه والتمثيل لتقريب المعاني، وكالتفصيل بعد الإيجاز، وكالترغيب بعد الترهيب.. وغير ذلك..

ومن ذلك -في مجال الأمر بالمعروف- ما رواه زيد بن يحي، قال: كنا عند مالك بن دينار فمر بنا خليفة البهراني فسلم على مالك، فقال له مالك رحمه الله: عظنا يا أبا عبد الله! فقال: «يا أبا يحيى، إنك -والله- إن عرفت الله حق معرفته أغناك ذلك عن كل كلام وموعظة!. أبا يحيى: إن المؤمنين لم يعبدوا إلههم عن رؤية؛ إنما عبدوه عن دلالة؛ إنهم والله لما نظروا إلى اختلاف الليل والنهار، ودوران هذا الفلك، وارتفاع هذا السقف المرفوع بغير عمد، ومجاري هذه البحار والأنهار، علموا أن لذلك صانعا ومدبرا لا يَعزب عنه مثقال ذرة من أعمال خلقه في السماوات والأرض، فعبدوا الله بدلائله على نفسه عبادةً أَنْضَتْ الأبدانَ، وأحالتْ الألوانَ، حتى كأنما عبدوه عن رؤية. فهم في الدنيا حيةٌ قلوبهم، ميتةٌ جوارحهم، إلا عند الذكر والمناجاة والنهوضِ إلى طاعته».

فبكى مالك بكاء شديدا ثم قام عَشِيَّته لم يتكلم بشيء.[2]

ففي هذه النصيحة عديد من ألوان القول المؤثر؛ ففيها: تفصيل بعد إيجاز، وإقناع منطقي، ووصف وتمثيل بأحوال الزهاد، وتذكير بتناوب الموت والحياة، وترغيب يعقبه ترهيب، ثم عكسه.. فهذا هو تنويع الأساليب القولية الذي نقصده هنا.

---

[1] ينظر: مواقف مضيئة: 210.

[2] خطبة الكتاب المؤمل، لابي شامة المقدسي: 177/1 ،و ربيع الأبرار، للزمخشري: 12/1

وفي مصنف ابن أبي شيبة عن وهب بن كيسان قال: كتب رجل من أهل العراق إلى ابن الزبير حين بُويع: «سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فأن لأهل طاعة الله ولأهل الخير علامةٌ يعرفون بها، وتُعرف فيهم، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بطاعة الله. واعلم أنما مَثل الإمام مَثل السُّوق يأتيه ما زكا فيه؛ فإن كان بَرًّا جاءه أهل البِر بِبرِّهم، وإن كان فاجرا جاءه أهل الفجور بفجورهم»[1]

ففي هذه النصيحة أيضا تلوين في الخطاب وتنويع بليغ ؛ مِنه مجيء التفصيل بعد الإجمال؛ فإنه بعدما نعت أهل الخير بأن لهم علامة يعرفون بها، رجع إلى تلك العلامة ليفصل القول في بعض أوصافها، ثم ضرب مَثلا للإمام الحاكم، من ناحية أن جلساءه يجلبون إليه أشياء من الخير أو الشر مِن مِثل ما عُرف به فيما بينهم؛ فهو كالسُّوق للتجار.

ثالثا: التنويع بالجمع بين رعاية ظاهر حال المخاطب وباطنها في مخاطبته:

يتحقق ذلك التنويع بتوقع خواطرا المتلقي وتلبية احتياجاته الإقناعية، و التفاعل معها عند الإجابة وعند المخاطبة. ولهذه التنويع أشكال وصور متعددة، فيما يلي بيان أهمها:

أ: صياغة الكلام وفق رعاية هيئة المخاطب وكلامه معا:

بمعنى عناية الداعية والمربي بقراءة دلالات التعبير المنطبعة على وجه المخاطب، والمنعكسة في كلماته، ونظراته، وحركات جسده، وأوضاعها، في القيام، والجلوس، والمصافحة، والإقبال والانصراف.. وغير ذلك.

ثم يستثمر هذه القراءة -أو القراءات المتعددة- في سبيل التماس أقرب الطرق وأجملها في التواصل والتأثير.. مثلما كان رسول الله حصيفا في تعامله مع الناس، يحس بأحاسيسهم، ويفهم نوازعهم، ويتعامل معها بما يناسبها، وهذا من تمام وصفه بأنه لم يكن فضا غليظ الطبع، صارم المعاملة، بل كان هينا لينا، سمحا قريبا.. فلذا تعامل بتفهم وأريحية مع الرجل الذي نهره الصحابة حين تكلم في الصلاة، لأنه أدرك حاجته

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة: 188/6

لمن يقربه، ويترفق في تعليمه، ويعوضه عما أصابه من الضرر النفسي حين لم يعذره أحد من المصلين، والرجل هو معاوية بن الحكم قال في خبره عن نفسه: صليت مع رسول الله فعطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم وضربوا بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يُصمتونني سكتُّ. قال: فدعاني النبي -بأبي هو وأمي- فما رأيت معلما أحسن تعليما منه؛ ما ضربني ولا سبني ثم قال: (إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح والتكبير والتحميد). رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما.

وتدخل أمثال هذه المهارات فيما يسمى في علم الاجتماع الحديث (بالذكاء العاطفي) للمتكلم ، و«يوصف الذكاء العاطفي بأنه مجموعة من القدرات التي تتعلق بكيفية قدرة الفرد على التعامل ذاتيا مع مشاعره وعواطفه، والقدرة كذلك على التعامل مع مشاعر الآخرين»[1].

وعند القدماء تعد المعرفة بهذه الأمور ورعايتها في تقييم حال المخاطب واختيار ما يناسبه من اللفظ والأسلوب.. من قبيل حدة الذكاء، ورقة الطبع، وحصافة الرأي.

والدراية بنوازع الخطرات والمهارة في فك رموز السكون و الحركات وأمثالها تهيئ للناصح والمربي القدرة على اختيار أفضل ما يستطيعه من الأساليب لاكتشاف نفسية المخاطب وغرس بذور الإصلاح والتغيير فيها وفق أخصر الطرق وأكثرها فاعلية..

ب- العناية بأسئلة المخاطب الصريحة ، وتوقع الأسئلة الضمنية:

أما العناية بالتساؤلات الضمنية: فيدخل عند البلاغيين في باب (الفصل والوصل) من علم المعاني، وتحديدا فيما سموه:(شبه كمال الاتصال)، وهو من مواضع ترك العطف بالواو بين الجملتين. وذلك حينما يأتي المتكلم بعبارة تثير تساؤلا في نفس المخاطب؛ إما تساؤلا عن السبب، أو عن غيره، فيأتي المتكلم بجواب سؤاله المقدر بعد ذلك..

ومنه قوله تعالى"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ" [الحج1]. فإنه لما أمرهم بالتقوى، فكأن سائلا سيسأل: «ما سبب

---

(1) (الذكاء العاطفي والقيادة الإدارية) ، للدكتور سعد مرزوق العتيبي. بواسطة موقع النور على الشبكة المعلوماتية.

هذا الأمر، وما أهمية امتثاله؟»، فجاء الجواب: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ"

وهذه الاستجابة السريعة من المتكلم وتوقعه لخواطر المستمع تزيد في إقباله عليه، وتفاعله مع كلامه، وتأثره به.. ومثال هذا في النصيحة والوعظ قصة ابن بشار، قال: مضيت مع إبراهيم بن آدم إلى "طرابلس"، و معي رغيفان، ما لنا شيء غيرهما، و إذا سائل يسأل؛ فقال لي: ادفع إليه ما معك! فتلبَّثتُ [أي ترددت في الامتثال لطلبه]! فقال لي: مالَكَ؟؛ أعطه!. فأعطيتُه وأنا متعجب من فعله.

فقال لي: يا أبا إسحاق إنك تلقي غدا ما لم تَلْقَهُ قَطُّ، واعْلمْ أنك تَلقَى ما أسلفتَ ولا تَلقَى ما خَلَّفْتَ؛ فَمَهِّد لنفسك؛ فإنك لا تدري متى يفجؤك أمرُ ربك!. قال ابن بشار: فأبكاني كلامُه، وهَوَّنَ عليَّ الدنيا. فلما نَظَرَ إليَّ أبكى قال: هكذا فَكُنْ![1]

فإنه لما أمره إبراهيم بن آدم بالصدقة وألحَّ عليه بها ، وليس معهما غير ذلك الرغيف، اشتدت رغبة ابن بشار في معرفة سر هذا الإلحاح، فكأنه تساءل عنه وإن لم يسأل!؛ فجاء جواب ابن أدهم كما هو في القصة، ولذلك كان للجواب في نفسه وقع كبير، لأنه جاء بعد تطلع وإلحاح في الحيرة، أورثه فهما عميقا لمغزى النصيحة، وعملا بمقتضاها منذ يومه ذلك، كما قال عن نفسه.

كما أن الاستجابة السريعة لخواطر التساؤل في نفس المخاطب ترسل إشارة هامة له، إذ كأنها تخبره بأن المتكلم يحترم عقله، ويسعى في الإجابة عن سؤلِه، ويجتهد في رفع الحيرة عن فهمه.

وأيضا ففي الإجابة بتعليل الأوامر وبيان الأسباب -على النحو المذكور في الأمثلة السابقة- تنشيط للسامع ليسهل عليه الامتثال لما أُمر به، لأن التعليل وبيان السبب يخفف من مشقة العمل الثقيل.

فهذا ما قصدنا بتنويع الأسلوب هنا؛ من خلال رعاية أمرين معا؛ ظاهر الحال وباطنها؛ فيأتي الكلام الظاهر دالا على المعنى المقاصد والحال المعلنة، ثم يعقبه الكلام التالي مجيبا عن المطالب والحال المبطَنة.

---

[1] صفة الصفوة: 778

ومن الأمثلة الجيدة في الإجابة على التساؤل الخفي في نفس المخاطب بعد أمره أو نهيه ، ما جاء في قصة عمر رضي الله عنه مع الشاب المسبل لإزاره؛ فقد نصحه بقوله له: (يا ابن أخي ارفع ثوبك)!.. ثم إن عمر رضي الله عنه توقَّع من ذلك الشاب أن يَتَطَلَّع لمعرفة علة هذا الأمر ويتساءل عنها.. فعقَّب عمر رضي الله عنه بيان السبب والإجابة على خفي المطالب والتطلعات بقوله للشاب: (فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك)... الحديث رواه البخاري.

وأما العناية بالتساؤلات الصريحة: فهذه لها أثر بلاغي من وجوه أخرى؛ يتضح ذلك بتأمل استفهامات الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- والدعاة والمصلحين عند مخاطبة أقوامهم، فيما أخبر به القرآنُ الكريم عنهم، أو حكاه من أحوالهم وأقوالهم.. إذ كثيرا ما كانوا يطرحون أسئلتهم على الناس في سياق الدعوة والتربية.. وكانت أسئلة مزلزلة لمباني الباطل في النفوس، وعلى أرض الواقع..

وعند علماء البلاغة: إما أن يأتي الاستفهام على حقيقته، وإما أن يأتي مرادا به معاني أخرى؛ غير حقيقية، وهو في كلا الحالين منبع حيويةٍ للأسلوب، وسبب قوي للتأثير في المخاطبين:

فالاستفهام الحقيقي هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل.

وأما الاستفهام المجازي فيَتَوَّلد بمعونة قرائن الأحوال، كقولك لمن لم ينتفع بالنصح: (كم نصحتك وكم دعوتك!)، ليس معناه: كم مرة دعوتك؟، بل معناه: كثيرا من المرات دعوتك فتأخرتَ!، وهو كناية عن البُعد، أو كناية عن تأخير إيجاد الفعل، أي فعل الامتثال لما دعاه إليه ونصحه به[1].

والاستفهام يحفِّز الذهن ويحرك الوجدان، ويلفت الانتباه، ولذا استعمله الناصحون والمربون في مواطن يحتاجون فيها إلى هذه المعاني.. فمن ذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ربما كرر أسئلة التنبيه والتذكير والتوبيخ في خطبته مرارا، من ذلك قوله:

«أين الوُضَّاءُ الحسنةُ وُجوهُهم، المعجبونَ بشأنهم!،أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان! ، أين الذين كانوا يُعطَون الغَلبة في مواطن

---

[1] ينظر: شرح تلخيص المفتاح، للبابرتي: 356

الحرب!؛ قد تَضعضع بهم الدهرُ فأصبحوا في ظلمات القبور. الوحا الوحا! النجاء النجاء!»[1].

وقد يكون طرح السؤال الصريح مساعدا قويا للفت الانتباه إلى مابعده من الكلام.. فيكون السامع على استعداد لتلقي ما يُلقى إليه منه تاليا.. ومن ذلك أن عليا رضي الله عنه شيع جنازةً فلما وضعت في لحدها عج أهلها وبكوها فقال لهم: «ما تبكون!!» ثم التفت مخاطبا الجمع وقال: «أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم! وإن له [يعني الموت] فيهم لعودة ثم عودة حتى لا يُبقي منهم أحدا»..[2]، فقد جاء السؤال مهيئا، والجواب هاديا مقررا، فاجتمع طريقان في التأثير وكان يمكن أن يكون طريقا واحدا؛ لولا أن البلاغة كانت في تنويعهما.

فلمثل هذه المكاسب البيانية أدرجت في (بحث تعدد الأساليب) الكلام على الاستفهام الصريح حينما يؤتي به تمهيدا لكلام هو المقصود في الأصل لكون الاستفهام الزائد يمثل صورة التنويع والتعديد، بينما إن خلا الكلام من السؤال كان كلاما واحد يبدأ من قائله وينتهي عند سامعه أو قارئه، في خطوة واحدة.

ومن الاستفهامات المجازية: الاستفهام الإنكاري أو التوبيخي والتقريعي؛ فإن المتكلم قد يُنزل المخاطبَ العالمَ بالحُكم ، التاركَ للعمل به، في منزلة الجاهل به؛ فيسأله عن الحكمة المعلوم سؤال تقريع وتوبيخ. وليس في ذلك اعتداء أو جناية من المتكلم على المخاطب، بل هو من باب مطابقة الحال؛ لأنه إن لم يعمل العالِمُ بمقتضى عِلمه صح تنزيله في منزلة الجاهل؛ سعيا لتوبيخه وتقريعه، لعله يرجع إلى رشده.

مثال هذا أن عروة بن الزبير بن العوام –رضي الله عنهم- رأى رجلا يصلي صلاة خفيفة فدعاه فقال: «يا أخي؛ أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك؟. إني لأسأل الله في صلاتي؛ حتى أسأله الملح».[3]

ولهذا الأسلوب -أعني الاستفهام الإنكاري والتوبيخي- أمثلة وتطبيقات كثيرة في كلام الدعاة والمربين، وما ذلك إلا لما رأوا فيه من

---

[1] صفة الصفوة: 101

[2] صفة الصفوة: 122

[3] البداية والنهاية ، لابن كثير: 103/9

قوة التأثير وجماله وبلاغته، فكان يتبادر إلى اللسان أحيانا وكأنه مما لا بد لهم منه ولا غنى بهم عنه!..

وتروي نورة السعيد موقفا للشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- نذكره مثالا بليغا لهذا الأسلوب في تنويع الأساليب المؤدية للمعنى الواحد؛ وذلك أن أخا لها صغير السن جاء إلى الصلاة مبكرا، ووقف في روضة المسجد، خلف الإمام، مع والده، فقام أحد المصلين وأبعده عن مكانه، ووقف بدلا منه، وبعد انتهاء الصلاة قال الشيخ ابن عثيمين لذلك الرجل : لِمَ فعلتَ ذلك؟ ؛ فهذا الطفل أحق منك بالمكان لأنه سبقك إليه!.[1]، فلدينا أسلوبان لمعنى واحد؛ أولهما الاستفهام الإنكاري (لم فعلت هذا!)، وثانيهما الشرح والبيان الصريح لوجه الخطأ : (فهذا الطفل أحق.. إلخ)

ولشيخه ابن باز رحمهما الله مواقف كثيرة استعمل فيها الجمع بين الاستفهام الإنكاري والكلام التقرير في التوجيه والتربية لطلابه وغيرهم، كما في الدرس الذي كان الشيخ يشرح فيه جواب الرسول لرجل سأله عن أبيه الكافر: «أبي وأباك في النار» رواه مسلم، فقال طالب من الطلاب: إن الرسول إنما قال ذلك للرجل لتطييب نفسه لا غير!. فالتفت الشيخ مُغضباً، وسأله مستنكرا: فقال: تطيبُ نفسُه بعذاب أبيه!؟ ؛ ثم أوضح له الجواب وأقوال العلماء[2].

ففي مثل هذا الموقف طرح الشيخ السؤال ولم ينتظر من الطالب الجواب ؛ لكونه فوض الإجابة إليه، لوضوحها، وليظل صدى السؤال يتردد في نفسه. ثم تلا ذلك بالبيان والتفصيل ليتوافق باطن الفكر مع ظاهر السمع؛ فهذا هو تنويع الأساليب البليغ.

وكما يتمثل هذا الأسلوب في كل (الأسئلة) التي لا يذكر المتكلم جوابها ، بل يوكل المهمة في تحصيله إلى المخاطب.. فإن يتمثل كذلك في عبارات الأمر والطلب-التي يكون المقصود منها إحالة المخاطب على موضع الهداية ليحصلها بنفسه. وكذا في التي يكون المقصود منها التحدي والتعجيز للمخاطب، ليعرف ضعف حجته في خطأ ارتكبه.. ثم إذا حققت

---

[1] صفحات مشرقة: 82

[2] مواقف مضيئة:191

مطلوبها جاء المتكلم ليعقب عليها بالبيان والإيضاح بعد أن يكون السؤال قد أخذ مأخذه وفعل فعله في نفس الملقَى إليه.

ثالثا- التنويع في ضمائر الكلام (الالتفات):

يتحقق هذا من خلال أسلوب (الالتفات) الذي هو أسلوب قرآني أيضا؛ لكثرة وروده في أساليب الذكر الحكيم، وهذا يدل أوضح الدلالة على أهميته وأثره البليغ ، إذ تكاد لا تخلو منه سورة، في موضع منها، أو أكثر من ذلك.

والمقصود بالالتفات: تغيير أسلوب الكلام، بالتنقل بين أساليب التكلم الثلاثة، وهي: ضمير المتكلم ، وضمير المخاطب، وضمير الغائب.

قال القزويني: (هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها)[1]. والطرق الثلاثة هي : المتكلم والمخاطب والغائب.

ودائرة (الالتفات) عند بعض البلاغيين، كابن المعتز، أوسع منها عند بلاغيين آخرين، لأن ابن المعتز -مثلا- لم يجعل الالتفات مقصورا على النوع المشهور منه؛ أي تغيير الكلام بين أسلوب المتكلم، والمخاطب والغائب.. بل أدخل فيه التنقل في الموضوع الواحد بين المعاني المختلفة، كأنه يتلفت بينها يمنة ويسرة، قال ابن المعتز: (وما يشبه ذلك من الالتفات: الانصرافُ عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر)[2].

والفائدة العامة لأي التفات يقع في الكلام هي تنشيط أثر العبارة، وتحفيز ذهن المتلقي لها، ودفع ملل الأسلوب المستمر؛ فهذا مما يتحقق بانتقال المتكلم من طريق لآخر، ومن معنى لثانٍ له اتصال بالمعنى الأول، ثم يعود إلى الأول، كأنه يلتفت إليه مرة أخرى؛ فلا يزال السامع في تنقل بين المشاهد المتحركة في دائرة المعنى الواحد، فلا يأسره ملل، ولا يفارقه التوق إلى المعرفة والاستماع. وهذا الانتقال يحقق التنويع الأسلوبي الذي تخصص له هذا البحث، بل هو من أقوى أنواع التنويع المجدد لروح العبارة، والمنشط لذهن المتلقي، ولذلك استحق في نظري أن يفرد بالكلام هنا.

---

[1] الإيضاح، للخطيب القزويني: 72/1

[2] كتاب البديع، لابن المعتز: 15

وأكثر ما يقع هذا الأسلوب (إذا اشتدت عناية المتكلم بذلك المعنى المنتقِل إليه ، كقوله سبحانه : ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ [الفاتحة2-4] فأَخبر عن غائب ، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ [الفاتحة5] قالوا: لأنَّ منزلةَ الحمدِ دون منزلة العبادة ، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فجَعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضر يخاطب بالكاف ؛ لأن كاف الخطاب أشد تصريحاً به -سبحانه- من الإخبار بلفظ الغيبة)[1].

وفي مجال النصح والتربية يمكن لهذا الأسلوب أن يساعد المتكلم على أن يتحرك وفق خواطر السامع وخلجات شعوره، بالالتفات إلى ما يشغل باله أو إلى ما يراه - أو يعتقده - مهما بالنسبة إليه، أو ما يراه غافلا عنه غير عابئ به ولا ملتفت إليه، فيلتفت المتكلم ليلفت معه السامع ، ثم يرجع إلى أصل الكلام، فيتم حديثه عنه.

كما يفيده الالتفات لتنشيط ذهن مخاطبه، لاسيما إذا كان ذلك المتكلم مضطرا إلى تطويل الكلام، فإن الكلام الطويل يمل، والالتفات يدفع جانبا من هذا من الملل.

ومن فوائده لفت انتباه سامعه إلى ما هو أكثر أهمية في الموضوع.. وقد تحقق هذا في قوله تعالى -منكِرا على المشركين شِركَهم-: " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا" فأخبر بـ(قالوا) عن غائبين، ثم التفت إليه إلى المخاطبين فواجَهَهم بقوله: "لقد جئتم شيئا إدًّا"[مريم88] تهويلا لجنايتهم، واستعظاما لشنيع فريتهم على ربهم.

وتَحَقَّقَت العناية بالمعنى عن طريق الالتفات إليه وتخصيصه بالضمير المختلِف في قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[يونس22] فقد (صَرف الكلامَ من خطاب الحاضرين إلى إخبار قومٍ آخرين بحالهم؛ كأنه يُعدد على أولئك ذنوبهم.. ويَشرح لهؤلاء بَغْيهم وعنادهم الحق ، ويُقبح عندهم ما فعلوه.. ويقول : ألا تعجبون من حالهم كيف دَعونا فلما

---

(1) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: 116/7

رحمناهم ، واستجبنا دعاءَهم ، عادوا إلى بغيهم!. وهذه الفائدةُ لو كانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة)[1].

وفي النصح والدعوة جاء الالتفات محققا غاية التخويف والترهيب للمعاندين في قوله عز اسمه: (وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [يس22] (الأصل (وإليه أُرجع)؛ فالتفت من التكلم إلى الخطاب. وفائدته: أن الرسول أَخرج الكلامَ في مَعرِض مناصحته لنفسه، وهو يريد نصح قومه؛ تلطفا وإعلاما أنه يريده لنفسه، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله وحده. وأيضا: فإن قومه لما أنكروا عليه عبادته لله أخرج الكلام معهم بحسب حالهم فاحتج عليهم بأنه يَقْبُحُ منه أنه لا يعبد فاطره ومبدعه ثم حذرهم بقوله: (وإليه ترجعون")[2].

ومن فوائد الالتفات: اتخاذه وسيلة لإظهار نوع من عدم الرضا عن المخاطب لشدة ذنبه، فيصرف الخطاب عنه، ويخاطب غيره، إشارة إلى أنه غير حقيق بمنزلة الخطاب، لعل قلبه يشعر بألم البعد والجفوة فيعمل على محو سببها الداعي إليها. وربما كانت هذه الفائدة متحققة في تلك النصيحة التي سبق أن ذكرنا أن عليا رضي الله عنه ألقاها على قوم اشتد بكاؤهم في المقبرة على فقيدهم.. فقد كلمهم أول الأمر بأسلوب الخطاب، فقال: (ما تبكون!) ، ثم التفت عنهم، وتحول إلى أسلوب الغائب، فقال: (أما والله لو عاينوا ما عاين مَيِّتُهُم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتِهم!)..[3]

ففي كل صور الالتفات وشواهده تنويع للأسلوب، نوعا على نوع، ليتجدد النشاط، ولتصل الرسالة، وليظهر محل الاعتبار.

***

---

1 شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: 116/7

2 البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 326/3

(3) صفة الصفوة: 122

خاتمة وخلاصة

أولا: لفت انتباهي بعد جولتي مع هذا البحث وأخوته السابقين عليه..، أنها لو قُدمت البلاغة العربية في أثواب مختلفة من التأليف والتعليم، لكان ذلك من دواعي قبولها وتأثيرها، وهو بالفعل ما قد اجتهد له علماء ومؤلفون كثر.. لكن ما نحتاج إليه ونقترحه هو أن نجعل هذا أسلوبا معتمدا مألوفا في تقديمنا لهذا العلم الجليل، مع طلابه وغيرها... بمعنى أن تقدم البلاغة مرة على هيئة تصنيفها الشائع بين العلماء، كالقزويني وغيره، ومرة أخرى نقدمها على هيئة شواهد وتطبيقات تندس القواعد والضوابط في ثناياها.. وأخرى نقدمها على مثل هيئة هذا البحث وما سبقه مما أشرت إليه في المقدمة؛ ألا وهي هيئة الموضوعات العامة –تربوية ، أو تعليمة، أو دعوية أو تفسيرية إلخ- التي تنضوي تحتها تفاصيل خاصة، بمثل ما سعيت له بهذه السلسة من البحوث، وههنا جاء الموضوع العام بعنوان (التنويع الأسلوبي)، فجلبت إليه من القواعد البلاغية الملائمة مما تفرق بين علومها الثلاثة، بأبوابها المختلفة.. على أن يكون هذا النهج في التأليف والتعليم غير ملزم للتغيير في منهج العِلم ولا منحرفا به بقدر ما هو منشط له ومجدد، ورابط له بواقع مَّا يحتاجه بوجه من الوجوه.

ثانيا: وكما كانت تلك نتيجة من نتائج البحث وتوصياته العامة، فإن خاص النتائج والتوصيات هو دلالته على منفعة التنويع الأسلوبي البلاغي في التربية والتوجيه وغيرهما، وأن التنويع لا حدود له؛ فهو يبدأ من أسلوب الصمت والسكوت المعبّر عن رسالة مَّا، ويمتد إلى أسلوب تقليب الكلام والتفنن به على وجوهٍ من التأثير والتعبير، ليتسلل به المتكلم إلى حجرات الذهن والنفس لدى المتلقي فيلقي فيها بذرة التأثير المطلوب أو يغرس شجرته، وأنَّ هذا فنٌّ يُهدى إليه من عُني به، والتمس وجوهه، وتدرب عليه، إلى أن يصل لمرحلة من سحر البيان فلا يكاد يمل منه سامعٌ، ولا يفلت من أثره متلقٍّ.

والله الموفق.

د. محمد بن عبدالرحمن الخراز

أستاذ مشارك، البلاغة والنقد الأدبي

مصادر البحث ومراجعه

- أدب الدنيا والدين، تأليف: أبي الحسن، علي بن محمد الماوردي ،الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1407 هـ - 1978 م
- إحكام صنعة الكلام، تأليف: محمد الكلاعي، تحقيق: محمد الداية. نشر: دار الثقافة، بيروت.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة; تأليف: ابن الأثير; نشر: دار ابن حزم
- الإيضاح في علوم البلاغة، تأليف: الخطيب القزويني ،تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الثالثة1413هـ/1993م،المكتبة الأزهرية للتراث
- البرهان في علوم القرآن ، تأليف: محمد الزركشي، نشر : دار المعرفة - بيروت - 1391 ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
- البداية والنهاية ، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير ، نشر : مكتبة المعارف - بيروت
- البديع ، تأليف: ابن المعتز. تحقيق: الدكتور عبد المنعم خفاجي. نشر: دار الجيل، بيروت.1410هـ.
- تجريد المنطق، تأليف: نصير الدين الطوسي، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، لبنان، الطبعة: الاولى 1988م.
- الجهاد ، تأليف : عبد الله بن المبارك، نشر: التونسية للنشر - تونس ، 1972تحقيق : نزيه حماد.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، تأليف: جار الله الزمخشري ، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ
- الذكاء العاطفي والقيادة الإدارية، للدكتور سعد مرزوق العتيبي.
- سير أعلام النبلاء ، تأليف: محمد الذهبي، أبو عبد الله ، نشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - 1413 ، الطبعة : التاسعة ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط , محمد نعيم العرقسوسي
- شرح تلخيص المفتاح للبابرتي، تحقيق: محمد رمضان صوفية. نشر:

المنشأة العامة ، ليبيا.

- شرح نهج البلاغة ، تأليف: أبو حامد عز الدين بن أبي الحديد ، نشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1418هـ - 1998م ، الطبعة الأولى ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري

- صفة الصفوة، لأبي الفرج بن الجوزي، تحقيق: خالد طرطوسي، دار الكتاب العربي.

- صفحات مشرقة من حياة الإمام محمد بن صالح العثيمين، تأليف: حمود عبد الله المطر.

- الورع ، اسم المؤلف: أحمد بن محمد بن حنبل ، نشر : دار الكتب العلمية - بيروت - 1403 - 1983 ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : د. زينب إبراهيم القاروط

- لسان العرب ، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور ، نشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة : الأولى

- الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، تأليف : عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي ، تحقيق : جمال عزون، نشر : مكتبة أضواء السلف - الرياض – السعودية، رقم الطبعة : الأولى، تاريخ الطبعة: 1424هـ - 2003 م

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م

- مواقف اجتماعية من حياة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تأليف: محمد السعدي، ومساعد السعدي.

- مواقف مضيئة في حياة الإمام عبد العزيز بن باز . تأليف: حمود المطر. دار الوطن.

***